تاريخ القضية الأزوادية وتطوّرها

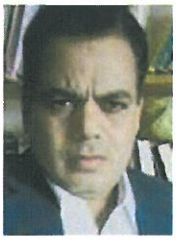

د. أحمد عبد الدايم محمد حسين*

«أزواد» هي الدولة التي أعلنت الحركة الوطنية لتحرير أزواد بشمال مالي عن قيامها في ٦ أبريل ٢٠١٢م.

تتجاوز مساحة «أزواد» مساحة فرنسا التي تتصدّر مشهد الحرب القائمة عليها الآن، وبالنظر لمجمل تاريخها؛ نجد أن لها امتدادات كبيرة، وعلاقات متشعّبة بالمناطق المجاورة، خصوصاً العربية، وأن تاريخها النضالي طويل، يمتد إلى العصر الوسيط، ويتصاعد خلال العصر الحديث والمعاصر، بدأ قبل استقلال دولة مالي عن فرنسا سنة ١٩٦٠م، حين رفعت راية الانفصال سنة ١٩٥٨م، واستمر على مدى عشرات السنين فيما بعد[1].

ولا يمكن فهم الجذور التاريخية لمشكلة المنطقة الشمالية في مالي فهماً جيداً إلا بالحديث عن أربعة محاور رئيسة:

المحور الأول: إطلالة على تاريخ مالي الحديث والصراعات التي عايشتها.

المحور الثاني: تاريخ الطوارق وأصولهم في المنطقة.

المحور الثالث: تاريخ القضية الأزوادية وتطوّرها.

المحور الرابع: أبرز الفصائل والجماعات والشخصيات التي تبنّت القضية وأثّرت فيها.

المحور الأول: إطلالة على تاريخ مالي الحديث والصراعات التي عايشتها:

«مالي» هي تحريف قبيلة الفولبي لكلمة «ماندي»، و

«مليت» هي التحريف البربري لها.

كانت مالي جزءاً من دولة غانا الإسلامية خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، وأساس دولة مالي الإسلامية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وقوام دولة صنغي التي برزت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

احتلتها فرنسا في نهاية القرن ١٩، وأعطتها اسم «السودان الفرنسي»، الذي ظلّ معها حتى سنة ١٩٥٩م، حيث حلّ «اتحاد مالي» محلّه، إلى أن برزت باسم «جمهورية مالي» سنة ١٩٦١م.

غالبية سكانها من البمبارا والفولاني والمالنكي والماندنجو والصنغاي والطوارق والسراكول وغيرهم، وأكثر من ٩٠٪ منهم مسلمون سنّة على المذهب المالكي.

يرجع تاريخ العلاقات التجارية بين سكانها والعرب شمالاً للقرنين ٩ و ١٠ الميلاديين، غير أن ظهورها على المسرح التاريخي يعود إلى القرن الأول الميلادي، فمدينة جنى بوصفها مهد صناعة التعدين في غرب إفريقيا، ولها اتصال بجميع القرى المتناثرة على طول نهر النيجر

(*) أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر - جامعة القاهرة.

(١) أحمد عبد الدايم محمد حسين: فرنسا وحرب أزواد، جريدة المصريون، السنة الثانية، العدد ٤٢٧، الأحد ٣٠ يناير ٢٠١٣م، ص ٨.

وروافده، تُعد أقدم مدينة لها تاريخ في دولة مالي.

يُذكر أنه مع حلول القرن ١١ انتشر الإسلام على يد مغاربة، وأصبحت المنطقة جزءاً من دولة غانا الإسلامية، ومع بداية القرن ١٢ أسّس الطوارق المغشران مدينة تمبكتو، وأصبحت منطقة مالي هي أساس إمبراطورية مالي الإسلامية، في حين هيمن الصوصو على جزء منها خلال الفترة من ١١٨٠م – ١٢٣٠م في ظل حكم أسرة الكانتي، وجعلوا عاصمتهم على بعد ٨٠ كم شمال باماكو[١].

هذا في الوقت الذي راحت الروايات المحلية تؤيّد ما ذكره البكري والإدريسي من وجود مملكتين في منطقة مالي الحالية، هما المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية، أو «مملكة دو» و «مملكة ملال»، وقد حقّقت «ملال» هذه الوحدة فيما بعد، واختفى اسم «دو» تماماً، حيث تطوّرت المملكة الجنوبية في عهد سونجاتا، أو «ماري جاطة»، لتصبح إمبراطورية مالي، فحينما اعتنق الإسلام على يد الشيخ المدرك استقطب العلماء المغاربة ودعاتهم من عشائر الزوايا والعرب لينشروا هذا الدين، غير أن اتخاذه من نياني، التي تقع على الحدود المالية الغينية أو على حدود الغابة، عاصمة له يشير بأنه ارتاح للمناطق الجنوبية أكثر من الشمالية مقراً لحكمه.

ويُعد منسا موسى من أشهر سلاطينها، فهو الذي استطاع أن يُخضع الصحراويين الشماليين، الذين كانوا ينزعون للنهب والتمرّد، لحكمه[٢]، وعلى هذا؛ فقد سبّبت المناطق الشمالية أرقاً لكلّ النّظم الحاكمة، ومن تمكّن من السيطرة عليها دانت له جميع البلاد بالسمع والطاعة.

جدير بالذكر؛ أن الطوارق والصونغي كانوا أول من سدّد الضربات لإمبراطورية مالي، الأمر الذي انتهى بضعف السلطة المركزية في نهاية القرن ١٤، وتصاعد قوة صنغي، فقد كان الصراع بين المناطق الشمالية قد أدى إلى مقتل ملكين من ملوكها، وبسبب ضعف السلطة المركزية شنّ الطوارق عدة غارات على مدينة تومبكتو، حتى سيطروا عليها سنة ١٤٣٣م، واستولوا على المدن الداخلية، مثل ولاتة وميما وجاو.

وبحرمان مالي من المنطقة الشمالية؛ دعم الطوارق مركزهم ودورهم في التجارة عبر الصحراء، غير أن نفوذهم هذا كان قصير الأمد، لصعود دولة صنغي تحت حكم «سنّي علي» الذي سدّد ضربة حاسمة لهم، وهذا الافتقاد للمنطقة الشمالية جعل دولة مالي تختنق اقتصادياً، وتتجه نحو الغرب لإقامة علاقات تجارية مع قوى البرتغاليين التي نزلت على ساحل الأطلسي.

المجتمع الأزوادي مارس دوراً لا يُستهان به في نشر الإسلام واللغة العربية في تلك المنطقة

وبهذه العلاقة استمرت الإمبراطورية القديمة تعيش بجوار الإمبراطورية الجديدة (صنغي)، إلى أن استفادت قبائل البمبارا على حسابهم، وانسحب الماندنجو جنوباً، ليكونوا أساس دولة ساموري توري في القرن ١٩[٣]، ومن ثم أدت الصحراء الكبرى دوراً مهماً في كونها جسراً بين الشمال العربي والسودان الغربي، وحلقة وصل اقتصادية مهمة بين المنطقتين[٤]، وعلى هذا كان افتقادها ضربة قاضية لاقتصاد المنطقتين، وابتعاد بعضهما عن الآخر.

على أية حال؛ ظهرت إمبراطورية صنغي عبارة عن إقليمين كبيرين، هما إقليم «كورمينا» في الغرب، وإقليم «دندي» في الجنوب الشرقي، هذا في الوقت الذي تمتعت

(١) جبريل ت نياني: مالي والتوسع الثاني للماندينج، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، ص ١٣٠، ١٣٣، ١٣٦.

(٢) السابق نفسه، ص ١٤٠، ١٤١، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٦٠، ١٦٥، ١٦٦.

(٣) مادينا لي تال: تدهور إمبراطورية مالي، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، ص ١٨٤، ١٨٥، ١٩٦، ١٩٧.

(٤) إبراهيم حركات: دور الصحراء الإفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط، مجلة البحوث التاريخية، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، السنة الثالثة، العدد ١، يناير ١٩٨١م، ص ٢٧، ٣٦.

المــدن التجاريــة، كتمبكتو وجنى وتغــازة وولاتة، بنوع من الحكم الذاتي تحت إدراة زعمائها من الكوى أو المتدزو.

وكان «اتحــاد طــوارق الانتســار»، و«اتحــاد طوارق المغشــارن» في تومبكتو وولاتة، عبارة عن دول تابعة لحكّام جــاو مقابل دفع الضريبة بانتظام[1]، واســتمر هذا الوضع حتــى انتهت دولة صنغــي على يد الجيش المغربي ســنة ١٥٩١م، ومنذ تلك الســنة حكم المغاربة منطقة مالي حتى عشرينيات القرن التاســع عشر، حيث حكمها الباشوات أو الباشــلك حتى ســنة ١٨٢٥م، ويبدو أنهم كانوا على دراية بالطبيعة المناوئة للشماليين، لهذا استقدموا الكثيرين منهم لاستطيان المنطقة المحيطة بنهر النيجر.

وحينمــا توقف المغاربة ســنة ١٦١٨م عن تعيين كبار موظفي البشالك، وعن إرسال تعزيزات عسكرية، فقد أقروا بأن يكون حكم المنطقة لمن تبقوا على قيد الحياة من جيش المنصور الذهبي، ويعرفون باسم «الأرما»، فقد نصّب هؤلاء من أنفســهم سادة شــرعيين على تمبكتو حتى بداية القرن ١٩، وتمكّن دولة أحمدو شيخو من حكم المنطقة.

وفي هذا الإطار حقّقت اتحادات الطوارق نصراً مؤزراً على الأرما ســنة ١٧٣٧م، لكنهم لم يســتولوا على السلطة منهم، وبالمقابل راحت مجموعة الكونتا تقدّم وساطتها بين الأرما وأعدائهم من البدو، ولم يتدخلوا في تمبكتو إلا عشية غزوها على يد الفولبي ١٨٢٥م / ١٨٢٦م[2].

من المؤكّد أن الحكم المغربي شــهد توســعاً للطوارق ناحية الجنــوب، إلا أن تدخلهم في النزاعات بين رؤســاء الأرما، ونهبهم للقرى الزراعية على طول النيجر، وصداماتهم مع الباشــوات طيلة القرن ١٨ وانتصارهم فيها، لم يؤد بهم للاستقلال بحكم مناطقهم استقلالاً كاملاً، بل كانوا يقدمون لتمبكتو ليقلدهم الأرما مناصبهم.

فعلى سبيل المثال؛ هاجموا تمبكتو سنة ١٧٧٠م، حتى تدخّل شــيخ الكونتا المختار الكبيــر في وجوب دفع الأرما كفالة لهم من الخيل والتبر، وفي المقابل ظلّ الباشوات على ولائهم للسعديين مُعلناً في خطبة الجمعة، حتى اغتيال آخر حكّامهم سنة ١٦٥٩م فتوقفت البيعة لهم.

وعندما اســتولى العلويون على السلطة عادت البيعة لهم، وكما فعل ملوك الســعديين فعل الســلاطين العلويون حتى ســنة ١٨٠٦م، فقد لقّب كلّ ملك نفسه في مراسلاته مع الأوروبيين، بلقب «عاهل جاو وغينيا»، بل كان المشــايخ المحليون يخاطبونهم، كما انتهى الأمر مع شــيخو أحمدو، زعيم الفولبي، بـ «ســلطان الغرب ومراكش والبلاد التابعة له فــي تمبكتو وأروان وبوجبيهه وتاوديني وســوس القريبة والبعيدة وتوات»[3].

وعلى هذا؛ ظلّت منطقة مالي تابعة للباشوات المغاربة حتى تكوّنت دولة أحمدو شيخو التكولورية حول باماكو، تلك التي اســتمرت تحكمها إلى أن هاجمت فرنســا عاصمتها سيجو ســنة ١٨٩٠م[4]، غير أن المناطق الشمالية في مالي ظلت بعيدة عن حكم الفرنســيين حتى ســنة ١٨٩٩م، فلم تتم السيطرة عليها بشــكل نهائي إلا بهزيمة الطوارق سنة ١٩٠٢م[5].

المحور الثاني: تاريخ الطوارق وأصولهم في المنطقة:

اســم «الطوارق» يعني بلغتهم «كيل تماهق»، ويســمّون أنفســهم «أموهاج»، أما اسم «الطوارق» الذي عُرفوا به فقد

(١) سينيكي مودي سيسكو: الصنغي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، ص٢١٠، ٢١١.

(٢) هناك ثلاث فرق من «الأرما» تناوبت على منصب «البشالك»، فنشأت طبقة الرؤساء فيما بين ١٦٤٦م - ١٨٢٥م، حيث تم تعيين ١٤٥ من الباشوات، ينتمي معظمهم لثلاث سلالات، هم التزركيني ومبارك الدرعي والزعري، لكن تدهورت سلطتهم منذ القرن ١٧، وأصبحت محصورة حول المدن، كجاو وجنى وتمبكتو، الأمر الذي ساعد على هجوم البمبارا في سيجو عليهم طوال القرن ١٨، فقد أخبرنا الرحالة والمستكشف الاسكتلندي سنة ١٧٩٦م بأن جنى تنتمي رسمياً إلى مملكة البمبارا، وإن كان المغاربة هم الذين يحكمونها، للمزيد انظر: م أبيتيول: نهاية إمبراطورية الصنغاي، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الخامس، ص ٣٤٧ - ٣٥٤.

(٣) م أبيتيول: المرجع السابق، ص ٣٥٦ - ٣٥٩.

(٤) نصر الدين رشوان حسن: التطوّر التاريخي للسياسة الفرنسية في أعالي النيجر، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد ٣٣، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٣١٠، ٣١٢.

(٥) س باير: الصحراء الكبرى في القرن التاسع عشر، تاريخ إفريقيا العام، المجلد السادس، ص ٥٨٦، ٥٩٠، ٦٠٤، ٦٠٥.

جاء مع الفتح العربي الإسلامي لمنطقة المغرب وشمال إفريقيا، وقيل بأن الاسم جاء لكونهم تركوا الإسلام في البداية، فسُمّوا «التوارك»، وقيل لأنهم تركوا المسيحية إلى الإسلام، فسُمّوا بهذا الاسم، وقيل بأن كلمة «طوارق» تنقسم إلى قسمين: «طوا» وتعني شعب، و «رق» وتعني اسم مكان، أو تسمّوا على اسم قبيلة تُدعى «تاركة»، ويقال إن أصلهم يمني، وقيل بأنهم خلف لقبيلة ليبية قديمة تُدعى «أوبرياني»، وأن أصولهم ترجع إلى «صنهاجة».

وهم أساس دولة المرابطين، ومسلمون سنّة على المذهب المالكي، وهم يعيشون الآن في المنطقة الممتدة من ساحل الأطلسي غرباً، حتى تشاد وليبيا شرقاً، يعيشون في أكثر من دولة من دول الساحل والصحراء الكبرى، في ليبيا وتشاد والنيجر والجزائر وموريتانيا، وكانت لهم في الماضي سلطنات عديدة، كسلطنة الهقار والأزقر وأضغاغ وتامزقدا وأولمدن وتاقريقرايت وكلاقرس، وفي مالي سكنوا مدن تمبكتو وجاو وأزواد وليره وكيدال.

وطوارق مالي يتحدثون لغة «التماشق» الأمازيغية.

وينقسمون إلى مجموعتين:

الأولى: طوارق الغرب: ويعيشون بين مدينة تمبكتو ومركز ليره.

والثانية: طوارق الشمال: وتضم قبائل إموشق وإفوقاس، ومنهم إياد جالي زعيم حركة أنصار الدين، وبلال الشريف رئيس جمهورية أزواد المعلنة في أبريل الماضي[1].

وجدير بالذكر؛ أن طوارق مالي الذين يعيشون في تمبكتو: عبارة عن قبائل أمقشرن، ينزلون عليها في الصيف، ويرجعون إلى أوطانهم في أروان في الخريف.

فهناك ٨ قبائل في تمبكتو: كيل نصر وأدنان وشمناس وكل السوق والبرابيش وأولمدن وكنته وتفرعاتها وأمغاد، ويقطنون أيضاً مدينة أروان، وهي تبعد عن تمبكتو ٢٥٠ كم في شمالها الغربي، وهناك فروع عديدة لهم في منطقة أزواد، تضم: كلنتصر وأجران وكل أقرس وأقدالن وكلتقلالت، وهم طوارق مرتحلة، ويقطنون جاو شمال النيجر ومالي.

وهناك ٧ قبائل طارقية أخرى: شمناس وأمغدن وكل السوق وأمغاد ودو اسحق وادنان وكنته وغيرها.

وهناك من يقطن مدينة «كيدال» في شرق مالي: وهي متاخمة للحدود الجزائرية والنيجر شرقاً، وهي عاصمة الطوارق، وأهم قبائلها: تاغات ملت وافوجاس وادنان وامغاد وافرقومسن وابلبتين وأرجناتن وكل جلا.

وهناك مدينة السوق: وتقع على مرتفعات أدرار ايفوجاس، وهي إلى الشمال الغربي من كيدال بـ ٦٠ كم، ويقطنها طوارق أدرار[2].

وبالرغم من أن كلّ مناطق مالي قد نعمت بالاستقرار خلال فترة الحكم المغربي، بدليل ترحيب كثير من علماء تمبكتو وحكامها وسكانها به، فإن عشرات السنين السيئة التي عاشت فيها قبل دخول المغاربة[3]، هي التي رسّخت هذا الحكم لثلاثة قرون كاملة، فكان نزوح الصنّاع والعلماء والتجار والدعاة المغاربة، قد ساهم في نشر الأسلوب المغربي الأندلسي في مختلف المناحي، وأثّر في تبديل أغلب الأسّس التي قامت عليها حضارات غانا ومالي والصونغاي من قبل، فقد حكمت المنطقة بـ ١٨٠ باشا من الباشوات والكواهي، حتى انكسر آخرهم (الكاهي محمد الرامي) على يد الفرنسيين سنة ١٨٩٤م.

ومن ثمّ؛ فإن إصرار الكتابات الأجنبية على أن فترة الإدارة المغربية بالسودان الغربي قد تسبّبت في ضعفها السياسي وتفكّكها القبلي وانهيارها الاقتصادي، وفي الثورات المتلاحقة والشغب وقطع الطّرق على ذوي السّحنات البيضاء، يُعدّ أمراً مبالغاً فيه، فغالبية مؤرخي المنطقة ينفون عن المغاربة تلك المسؤولية التي لفّقها

(١) أحمد عبدالدايم محمد حسين: طوارق أزواد وحلم الدولة المستقلة، جريدة المصريون، السنة الثانية، العدد ٤٣٩، الجمعة ١ فبراير ٢٠١٣م، ص ٨.

(٢) الهادي مبروك الدالي: قبائل الطوارق.. دراسة وثائقية، سلسلة من تاريخ القبائل الإفريقية، رقم ٤، القيادة الشعبية الاجتماعية للجماهيرية العظمى، ط ١، بنغازي، ليبيا، ٢٠٠٦م، ص ١٦- ٢٣.

(٣) محمد زروق: العلاقات العربية الإفريقية في القرن السادس عشر، الوجود المغربي بالسودان الغربي كنموذج، مجلة البحوث التاريخية، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، السنة السابعة، العدد ٢، يولية ١٩٨٥م، ص ٨٣ - ٨٧.

الأجانب، فعلى سبيل المثال؛ قدّم لنا كعت والسعدي بأن الطوارق كانوا هم السبب الرئيس في الفوضى، فلم يتوقفوا - وبخاصة قبيلة مغشرن - عن شنّ الغارات وقطع الطرق ومصادرة أحمال التجارة، ولعل حروبهم مع الحكام المغاربة طيلة فترة حكمهم[1]، تُعدّ شاهداً على السلوك الذي سلكوه فترات طويلة ضد السلطة القائمة.

ولعل الدور الذي مارسه كنتة أزواد، الذين كانوا يسكنون شمالي تومبكتو حتى القرن ١٩ وفي كلّ نواحي أزواد بعد ذلك، وقبول الجميع من الطوارق والبمبارا والبرابيش وغيرهم بوساطتهم مع النّظم القائمة، هو الذي هيأ الاستقرار لتلك المنطقة في معظم الفترات[2].

ولعل الدور الذي قام به الطوارق في مقاومة الفرنسيين، حين قاد بابا أَق هجوم أهقار عليهم، حتى تم استسلام الأقليم في مايو ١٩٠٢م، هو الذي يفسّر بقاء تمبكتو عصيّة على الفرنسيين، فقد خسروا فيها قتلى كثيرين، حتى جاء الميجور جوفير، فكان يقتل الطوارق كما يقتل الذباب[3].

واستمر دورهم بعد استقلال مالي عن فرنسا يطالب بالانفصال، لدرجة أن قيادتهم لمعظم حركات التمرّد التي خرجت ضد الحكومات المالية المتعاقبة، كانت هي الفاعلة والمؤثّرة، حتى وصلنا ليصبح أحدهم (بلال آق الشريف) رئيساً لجمهورية أزواد المعلنة في أبريل الماضي[4].

المحور الثالث: تاريخ القضية الأزوادية وتطوّرها:

عرفنا مما سبق أن المنطقة الشمالية المسمّاة بأزواد، كانت عصيّة على الخضوع لكثير من السلطات الحاكمة في منطقة مالي عبر فترات طويلة من تاريخها، تمتد هذه المنطقة من تمبكتو ومنحنى نهر النيجر جنوباً حتى حدود الجزائر شمالاً، ويحدّها من الغرب شنقيط، ومن الشرق أزواج، وتشمل معظم ولايات مالي الشمالية (جاو وتمبكتو وكيدال).

و «أزواد» تعني بلغة حسان: الوادي المنبسط، وتعني الوادي الوفير، وتقطنها عدة قبائل، منها كنته والبرابيش العرب، والطوارق، وتجكنت، والسنغاي.

ومن أشهر زوارها الحسن بن الوزان الذي وصفها بأن «الوصول إليها يكون بمشقة»، وازدادت شهرتها بعد نزول المختار الكنتي بها وتأسيسه زاوية هناك، حيث توافد عليها العلماء وطلاب العلم، وغدت منارة علمية[5].

يتألف إقليم أزواد من منطقتين:

الأولى: أزواج: وتقع على حدود النيجر، وتعيش بها طوارق إموشق وعرب البرابيش وكنته.

الثانية: أزواد: وتقع داخل حدود مالي، وتتسع لأكثر من ثلثيها.

ولما كانت مساحتها كبيرة فهي بدورها تنقسم لثلاث مناطق:

الأولى: محاذية لنهر النيجر من تخوم تمبكتو، ومنطقة أزواد متروكة وشأنها، فهي فقيرة البنى التحتية والمرافق العمومية، وتكتفي السلطات المالية بتسييرها بواسطة رؤساء مناطق التجمعات الأربعة، وتفرض على سكانها إتاوات وضرائب عينية، على الأفراد والمواشي، بما جعل الأهالي يتجهون في أول الأمر إلى ليبيا، حيث يجدون العمل في الكتائب الأمنية وشركات النفط، وإلى الجزائر حيث يحصلون على بطاقات الهوية والتموين الغذائي، وتارة يذهبون إلى السعودية، حيث توجد جالية كبيرة هناك.

أما الذين عزّ عليهم الرحيل فانخرطوا في تجارة الدخان والمخدّرات وغيرها.

---

(١) محمد الغربي: الحكم المغربي في السودان الغربي.. نشأته وآثاره، الجزء الأول، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، ص ١٢ - ١٥.

(٢) عزيز بطران: الشيخ المختار الكنتي الكبير ودوره في نشر الإسلام والطريقة القادرية في الصحراء وغرب إفريقيا، مجلة البحوث التاريخية، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، السنة الثالثة، العدد ٢، يولية ١٩٨١م، ص ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣١٨، ٣٢٢ ، ٣٢٨.

(٣) الشاوي اللاله البكاي اماهين: الطوارق عبر العصور، تحقيق اصلاح محمد البخاري حمودة، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ٢٠٠٧م، ص ٩٣ ، ١٨٠، ١٨١.

(٤) محمد الأمين الواعر: إقليم أزواد.. التاريخ والموقع، http://essirage.net/news-and-repor 25-28-19-25-06-2012-ts/8360

(٥) الهادي مبروك الدالي: مرجع سابق، ص ٢١، ٢٢.

والثانية: هي المنطقة الوسطى، وتمتد ما بين المنطقة الأولى للحدود الجنوبية، للخط الواصل بين كيدال - تندمه، وهي منطقة صحراوية قاحلة.

والثالثة: هي الواقعة إلى الشمال مباشرة من المنطقة الوسطى، وتضم سلسلة جبال كيدال وتسليت وأكلهوك وتايكارين وتقريرت، وجبال إفقاس والهكار وأضغاغ وآدرار سطف، وتندمه حتى الحنك وركشاش على الحدود الموريتانية.

وعلى هذا؛ فإن الطبيعة الجغرافية لإقليم أزواد جعلته عصيّاً على السيطرة والاحتلال، فجباله توفّر الموقع المتمترس للمقاتلين، أما صحراؤه المكشوفة؛ فتحرم الغزاة من إمكانية المفاجئة والاحتماء، وتجعلهم صيداً سهلاً لأهله.

وحينما حصلت جمهورية مالي على الاستقلال من فرنسا ١٩٦٠م؛ كان إقليم أزواد يشكّل ٧٠٪ من مساحتها البالغة ١,٢٤٧,٢٢٨ كيلومتر مربع، أي ٨٢٧٤٨٥ كلم٢.

ويقع الإقليم بين خمس دول: الجزائر، موريتانيا، مالي، بوركينافاسو، النيجر.

وقد تجاهلت فرنسا، حين وضعت الحدود، الخصائص الأنثروبولوجية والتركيبة السكانية لإقليم أزواد[1]، فقد ضمّت السنغال وجمهورية السودان الفرنسي وصحراء أزواد في اتحاد ثلاثي سمّته «اتحاد مالي»، غير أن انسحاب السنغال منه سنة ١٩٦١م، وتغيير السودان الفرنسي لاسم مالي، لم يغيّر من وضع أزواد، فقد ظلّت تابعة لمالي[2]، وهو الأمر الذي أدى لسلسلة من الهبّات الانفصالية رغبة في الاستقلال.

وبالطبع كان الترتيب الفرنسي لضمّ أزواد لمالي قد جاء عقاباً على استمرار تمرّد الإقليم على سلطات الاحتلال، فالمنطقة الشمالية شكّلت حلقة وصل بين الجزائر ومالي، فكان لا بد من إخضاعها تحقيقاً لهذا الهدف، وهو الأمر الذي دفع سكانها لتشكيل خلايا مقاومة دينية وثقافية للفرنسيين، فكان رفضهم لمساندة فرنسا في الحرب العالمية الثانية سبباً مباشراً في انتقامها منهم، بسلخهم عن محيطهم الإقليمي، وضمهم لمالي والنيجر.

وفي هذا الإطار يمكن فهم أول نزوع لها نحو الانفصال في خمسينيات القرن العشرين، وبصورة واضحة سنة ١٩٥٨م، معتمداً على الشخصيات القبلية والقيادات التقليدية، حيث قادت تلك الشخصيات عمليات جهادية نوعية في المنطقة، عجّلت برحيل فرنسا عن مالي كلها.

ولما كانت فرنسا لم تعر أي اهتمام لتنمية الإقليم؛ فقد أثّر هذا في منحنى الأحداث بعد الاستقلال، حيث شكّل الأزواديون مع جيرانهم في الجنوب جمهورية مالي، على اعتبار أنها ستكون دولة الجميع، وتحظى كلّ مكونات الشعب بالقدر نفسه من الرعاية والتنمية والتعليم والحضور للهوية العربية والطارقية، ومع سياسة التهميش من قبل حكومة باماكو بعد الاستقلال بدأ التاريخ النضالي الأزوادي، ولعل اتهام الأزواديين للفرنسيين بتعمّد ضمّهم لدولة مالي الناشئة لإبقاء نفوذهم في المنطقة يكشف هذا الترتيب المسبق لعملية الاستقلال، ويفضح أصابعهم الحالية للهدف نفسه[3].

وعلى هذا؛ جاء تشكيل الحركة الشعبية الأزوادية في ستينيات القرن العشرين نتيجة هذا الإهمال الحكومي لمنطقة أزواد، ليصب في اتجاه الانفصال، وبالرغم من إخفاق الحركة في تحقيق الاستقلال فإنها وفرت للأزواديين تجربة استفادوا منها في التجارب اللاحقة، فكان بعضهم يعلن مطالبه الانفصالية ودعوته الصريحة للاستقلال، في حين كان آخرون يعلنون رضاهم باتحاد كونفدرالي، أو التحضير لنوع من الحكم الذاتي، يضمن استفادة المنطقة من عائدات البلاد المالية، ويساهم في تنميتها، وقد انتهى تمرّد سنة ١٩٦٣م على يد الرئيس المالي موديبو كيتا.

وكانت ثلاثة عقود بعد ذلك كافية لإنضاج تجربة

(١) محمد الأمين الواعر، مرجع سابق.

(٢) أحمد ولد علال: أزواد منطقة مظلومة، ٢٤ فبراير ٢٠١٢، http://elmohit.net/n/2704-18-21-19-24-02-2012.html

(٣) محمد الأمين الواعر، مرجع سابق.

جديدة، تمثّلت في ظهور الحركة الشعبية لتحرير أزواد بقيادة إياد جالي، تعلن عن نشاطها العسكري عام ١٩٩٠م[١]، تلك الحركة التي تغيّرت قيادتها فيما بعد، حتى نجحت في إعلان استقلال دولة أزواد في أبريل الماضي.

المحور الرابع: أبرز الفصائل والجماعات والشخصيات التي تبنّت القضية وأثّرت فيها:

ثبت تاريخياً أن منطقة أزواد لم تخضع قبل الاستعمار الفرنسي لسيطرة مباشرة من أية سلطة حكمت المنطقة من قبل، بل ظلّت تُدار عن طريق إمارات قَبَلية، وتتبع من حين لآخر - بطريقة غير مباشرة - لإدارة تمبكتو.

ولما كان المجتمع الأزوادي يتكوّن من قبائل عربية في الجهة الشمالية والغربية، وقبائل طارقية في الشمال والشرق، ومجموعات من السونغاي والفلان يقطنون المنطقة المحاذية لنهر النيجر، فقد مارس هؤلاء جميعاً دوراً لا يُستهان به في نشر الإسلام واللغة العربية في تلك المنطقة.

وبالرغم من وجود صعوبة في فك لغز الأصول الإثنية لكلّ الشعوب التي تعيش فيها، وبالرغم من أنها تمثّل أرضية مناسبة للنزاعات والحروب المستمرة في المنطقة، فإن الطوارق كانوا جزءاً رئيساً فيها وفي كفاحها، وهو الأمر الذي أوجد تقارباً كبيراً بينهم وبين البيضان، خفّف من حدة التوتر، وقلّل من صعوبة العيش.

برز تاريخ أزواد النضالي بعد الاستقلال في أربع وقفات مهمّة:

الأولى: سنة ١٩٦٣م ضد نظام موديبو كيتا.

والثانية: ما بين ١٩٩٠م - ١٩٩٦م، انتهت باتفاقية تمنراست بالجزائر بين الطوارق وحكومة موسى تراوري في يناير ١٩٩١م، واستُكملت بالميثاق الوطني سنة ١٩٩٢م وغيره من ملحقات.

والثالثة: بدأت في مايو ٢٠٠٦م ضد الرئيس آمادو توماني توري، وانتهت بتوقيع اتفاقية الجزائر في يوليو ٢٠٠٦م، استُكملت ببروتوكول تفاهم طرابلس في مارس ٢٠٠٨م، غير أن استمرار سياسة التهميش للأزواديين حتّم عليهم النضال مجدداً، ودخولهم في المرحلة الرابعة التالية.

المرحلة الرابعة: منذ سنة ٢٠١٠م[٢].

وجدير بالذكر أن تمرّد الطوارق عامي ١٩٩١م / ١٩٩٢م قد جاء بردود فعل عدوانية تجاه بعض السكان، وأدى إلى نوع من أنواع التصفية العرقية للرحّل[٣]، وهو الأمر الذي تطوّر باتجاه رفع السلاح ضد الحكومة منذ عام ٢٠٠٠م، ففي أبريل ٢٠٠٦م أعلن العقيد حسن فجاجة انفصاله عن الجيش المالي متهماً الحكومة بتهميش المناطق الشمالية، وتعمّد تجهيل أهلها وتفقيرهم، مصطحباً معه ١٠٠ مسلح، احتل بهم مدينة كيدال[٤].

على هذا؛ فقد كان إخفاق دولة مالي في تنمية الشمالِ الأزوادي، وإشعاره أنه جزءٌ من الدولة، قد ترك المنطقة لقطّاع الطّرق وتجار المخدّرات والتخلّف[٥].

ومن ثم تحكّمت أربعة أطراف رئيسة في قيادة نضال أزواد، تمثّلت في:

١ - حركة تحرير أزواد ذات الميول العلمانية.

٢ - وجماعة أنصار الدين المتحالفة مع القاعدة.

٣ - وجماعة التوحيد والجهاد المتحالفة مع عناصر القاعدة الصحراويين والموريتانيين.

٤ - والجبهة العربية لتحرير أزواد التي تضم جماعات البرابيش.

ومن ثم؛ فإن التحرّك الأزوادي الجاري الآن هو سادس تجربة تحرّرية في تاريخ الإقليم الطامح للانفصال[٦]، وهو

---

(١) أحمد ولد محمد المصطفى: حراك إقليم أزواد الجديد: عوامل النجاح ومزالق الفشل، http://www.alakhbar. info/22364-٠--FCA٠--FC٠-F-F-٠-F-FF.html

(٢) أحمد ولد علال: أزواد منطقة مظلومة، ٢٤ فبراير ٢٠١٢م، http://elmohit.net/n/2704-18-21-19-24-02-2012.html

(٣) محمد الأمين الواعر، مرجع سابق.

(٤) أحمد ولد محمد المصطفى، مرجع سابق.

(٥) أحمد لحبيب أبنو: ملاحظات حول الحرب والمأساة.. في مالي و أزواد، ٢٨ يناير ٢٠١٣م، http://elmohit.net/

(٦) يحيى ولد سيدي أحمد: أزواد: ما وراء الأكمة، http://www.

الأمر الذي يفسّـر لماذا ضمّت جبهـة تحرير أزواد معظم المقاتليـن القدامـى من حركة ٢٣ مايـو ٢٠٠٦م التي كان يقودها إبرهيـم باهنجا والعقيد الحسـن فجاجة، إضافة للعسـكريين المنفصليـن عن الجيش المالـي من مختلف الرتب، وبعض الشـباب المتطوعين والمغمورين بحماسـة الانتماء لجيش جمهورية أزواد الوليدة، والمتخرجين حديثاً مـن مراكز التدريب، في حين راحـت حركة أنصار الدين، بقيـادة العقيد إيـاد آق جالي وهو من المؤسّسـين لجبهة تحرير أزواد (مع بركه الشـيخ والشـريف اسليمان)، تضم عدداً مـن المقاتلين المحترفين الإسـلاميين، وهي حركة أغلب عناصرها من قبيلـة إفوقاس ومن الطوارق والعرب، وعلى علاقة بتنظيم القاعدة بمختلف أجنحته، القاعدة في بلاد المغرب الإسـلامي، وجماعة الدعـوة والقتال بقيادة حمّاد ولد محمد الخيـري الموريتاني، وجماعة بوكو حرام النيجرية، وغيرهم[١].

ومنذ ١٧ يناير ٢٠١٢م؛ دشنت الحركة الوطنية الأزوادية مرحلة جديدة من الصراع ضد الوجود الحكومي في منطقة أزواد، بعدما تحوّل الإقليم لثكنة عسـكرية بقدوم مقاتليهم مـن ليبيا مطالبة بحـق تقرير المصير، وهـو ما اعتبرته الحكومة ذريعة للتدخل وثورة على جمهورية مالي الموحّدة بدعم قاعدة المغرب الإسلامي[٢].

وإذا كانت مطالب حركات تحـرير إقليم أزواد قد دارت في مجملها حول مطلب الاستقلال، مع تفاوت في أسـاليبه ومـداه الزمني، ومدى احتياجه لفترة انتقالية أو حكم ذاتي، أو اتحاد كونفدرالـي، فإن ردّ الحكومة المركزية في باماكو كان الرفض لذلك جملة وتفصيـلاً، والإصرار على إبقـاء الدولة المركزية، مع وعود بمشـاريع تنموية وتطوير للبنى التحتية، غيـر أن تجربتهـم مع وكالة تنمية شـمال مالي، وإعـلاناتهـا المتكررة عن تمويـلات قيّمة، ومع ذلك ظلّت تنمية المناطق الشـمالية دون التوقعات[٣]، هو الـذي أجج رغبة الانفصال عن دولة غالبيتها مسلمين مثلهم.

ففي هذا الإطار؛ أنشأ الطوارق عدة تنظيمات لتحقيق الاستقلال عن مالي، وإعلان دولة أزواد المستقلة، يأتي على رأسـها الحركة الوطنية لتحرير أزواد، وحركة أنصار الدين السـلفية، المتعاطفة مع تنظيم القاعـدة، في حين قامت العناصر العربيـة بتكوين حركة التوحيد والجهاد، مع وجود قوي لهم داخل تنظيمات الطوارق.

أمـا الصونغاي؛ فقد شـكّلوا تنظيم مـلاك الأرض، ومع التنظيمات السـابقة، يوجد الجيش الثوري لتحـرير أزواد، والجبهة الشـعبية لتحرير أزواد، والجماعة السلفية للدعـوة والقتال، وتنظـيم القاعدة فـي المغـرب العربي، وتنظيم القاعدة بالغـرب الإفريقي، وعلى هذا؛ فإن غالبـية التنظيمات ظـلّت ترفع راية الاسـتقلال، في حين رفعـت التيارات الإسلامية راية تطبيق الشـريعة الإسلامية.

وقد عجّل الانقلاب العسـكري، الذي حدث في مالي في مـارس ٢٠١٢م، بظهـور دولة أزواد المسـتقلة في ٦ أبريل ٢٠١٢م، غير أن رفـض المغرب والجزائر وموريتانيا والسـنغال، ثم الدول الأوروبية (فرنسـا وإسبانيا والولايات المتحـدة)، لإعلان قيام الدولة من جانب واحد، جعل الأمم المتحدة ترفض هذا الوليد الجديد[٤].

غيـر أن تأثير انعكاسـاتها على المنطقـة الإقليمية المحيطة، وعلى الجماعات والشخصيات المتفاعلة معها، قد أرّق العسكريين والسياسيين عبر منطقة الساحل والصحراء، حتى تحوّلت بعد إعلان الاسـتقلال إلى مشـكلة ذات طابع دولي بدخول فرنسـا في حرب معها، فهل سـتصمد الدولة الناشئة أمام التحالفات المحليّة والإقليمية والدولية ضدها؟! أم ستعود إلى حضن مالي، لتبدأ صراعاً من جديد؟!

·-A·--·--FA.html-alakhbar.info/27466

(١) عمار ولد سيد محمد البريوشي: قضية أزواد.. جذور المشكلة وآفاق الحل، ٤ فبراير ٢٠١٢م، انظر:
·-CA·---·--http://www.alakhbar.info/22261
FF·--FF.html

(٢) محمد الأمين الواعر: مرجع سابق.

(٣) أحمد ولد محمد المصطفى، مرجع سابق.

(٤) أحمد عبد الدايم محمد حسين: فرنسا وحرب أزواد، جريدة المصريون، السنة الثانية، العدد ٤٢٧، الأحد ٣٠ يناير ٢٠١٣م، ص ٨.